

## من معرفة الله إلى فهم القضاء والقدر خواطر حول أسئلة وجودية وإشكالات الفهم

### مقدّمة

تكثر في أذهان الناس الأسئلة الوجودية، ولا سيما أسئلة القضاء والقدر، وتتردد بصيغ مختلفة:

- هل نحن مسيّرون أم مختّرون؟
- ولماذا نسعى والرزق مكتوب لن يخطئنا؟
- ولماذا نحاسب على أعمال قدرها الله؟
- وكيف يحاسب الله الناس مع اختلاف البيئات والقدرات والفرص بينهم؟
- وغيرها عشرات الأسئلة التي تتكرر في كل عصرٍ وبيئة.

هذه الأسئلة — على كثرتها — ليست بالضرورة علامة شك ولا ضعف إيمان، لكنها علامة على أن الصورة التي يحملها الإنسان عن الله عز وجل تحتاج إلى مراجعة عميقة، وأن عليه أن يختبر "قاعدة البيانات" التي تكوّنت في ذهنه عن الله: هل هي مبنية على ما وصف الله به نفسه في كتابه؟ أم مبنية على خواطر بشرية، وتصورات ناقصة، وقياسات عقلية لا تليق بجلاله؟ ولهذا يسألنا الله سؤالاً يهزّ القلوب:

**فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ؟؟؟**

فإن كان ظنك بالله مبنياً على معرفته كما وصف نفسه -علماً، وحكمةً، ورحمةً، وقدرَةً - اطمأن القلب وزال الإشكال. وإن كان ظنك بالله مستنداً إلى صورةٍ صنعها خيالك، فلن تفهم القدر ولو سمعت ألف جواب. هذا السؤال العظيم يبيّن أن ظنك بالله يجب أن يُبنى على ما أبلغنا الله به عن نفسه، لا على ما تتخيله العقول القاصرة، ولا على صور ذهنية صنعها الإنسان بداخله.

قبل أن نجيب عن الأسئلة الوجودية الكبرى، كالسؤال عن التسيير والتخير، أو السعي والرزق، أو عدل الحساب بين الناس لا بد أن نضع أمام أنفسنا ثلاثة محاور أساسية لا يمكن فهم القدر إلا بها:

**1. معرفة الله كما وصف نفسه، لا كما تتخيله العقول.**

**2. فهم القضاء والقدر وأركانه الأربعة: العلم والكتابة والمشينة والخلق.**

**3. التمييز بين الإرادة الشرعية والإرادة الكونية.**

ثم بعد ذلك نجيب عن ثلاثة من أشهر الأسئلة:

هل الإنسان مسيّر أم مختّير؟ وإذا كان الرزق مكتوباً... فلماذا نسعى؟ وكيف يكون الحساب عادلاً مع اختلاف البيئات والقدرات والفرص بين العباد؟

### المحور الأول: معرفة الله كما وصف نفسه

أصلُ الفهم، وأساسُ اليقين

**1. لماذا تبدأ كل الإجابات بمعرفة الله؟؟؟**

قبل أن نفهم القضاء والقدر، وقبل أن نسأل: هل الإنسان مسير أم مخير؟ ولماذا نسعى والرزق مكتوب؟ لا بد أن نسأل أولاً: من هو الله؟ فالقدر فرع من معرفة الله، ومن جهل الأصل أخطأ في الفرع.

لا يمكن للعقل - مهما بلغ - أن يصل إلى معرفة الله بخياله أو تصوّره أو قياسه، لأن الله "لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ". فإذا كان لا مثيل له، فكل تصور في الذهن عنه سيكون ناقصاً، لأن العقل لا يدرك إلا ما له شبيه أو نظير. لذلك لا تعرف الله بما خطر في بالك، ولا بما كوّنه خيالك، ولا بما صورته لك ثقافتك أو بيئتك، وإنما تعرفه بما وصف به نفسه في كلامه؛ فالكلام صفة المتكلم، ومن تأمل كلام الله عرف من هو الله.

إذا صحت معرفة الله في القلب، استقام كل ما بعدها: فهم القضاء والقدر، واستقام فهم التسيير والتخير، وزال الإشكال عن السعي والرزق، واطمأن القلب. أما إذا كانت معرفة الله ناقصة أو خاطئة، فسيبقى الإنسان في دوامة الأسئلة مهما قرأ أو سمع. لان هذا العلم بحاحه الى فقه القلوب اكثر حاجته الى علم العقول.

## 2. معرفة الله بالكمال المطلق لا بخواطر العقول

أول ما نحتاج أن نثبته في قلوبنا: أن الله لا يُعرّف بأوهامنا ولا بخيالاتنا ولا بقياسنا للبشر، بل يُعرّف بما وصف به نفسه في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ. فالكلام صفة المتكلم، ومن تأمل كلام الله، عرف من هو الله.

التمام شيء، والكمال المطلق شيء آخر؛ فالتمام هو أن يكون الشيء مكتملاً بالنسبة لغيره، لكن يمكن أن يُتصوّر ما هو أتمّ منه، أمّا الكمال المطلق فهو الذي لا يمكن أن يكون فوقه كمال، ولا يجري في العقل تصور "أفضل" أو "أكمل" منه. صفات الله كلها من هذا الباب:

علم الله، حكمة الله، رحمة الله، قدرة الله، عزة الله، عدل الله... كلها صفات كمال مطلق لا يعترئها نقص، لا حد لها، ولا نهاية، ولا زيادة تُتصوّر بعدها.

## ولذلك كان من أعظم الأذكار: "سبحان الله"؛

أي: نُثّرّه الله عن كل ما لا يليق به، وعن كل وصف يتصوّر عقلنا، حتى لو كان في نظرنا "عظيماً وجميلاً"، فهو - مهما عَظُم - دون حقيقة ما يليق بالله عز وجل. العقل لا يدرك إلا ما له شبيه أو نظير، والله جل جلاله ليس كمثله شيء، فلو تركت نفسك لعقلك وحده ليعرفك بالله، فلن يصل إلا إلى صورة مشوّهة، قريبة من البشر، بعيدة عن كمال الخالق.

لذلك لا يجوز أن نرسم في عقولنا "صورة" لله ثم نحاكم القدر بناءً عليها، بل الواجب أن نبدأ من القرآن والسنة:

ما الأسماء التي سمى الله بها نفسه؟

ما الصفات التي وصف بها نفسه؟

وكيف أثبتتها السلف دون تأويل يفرغها من معناها، ولا تمثيل يشبهها بصفات المخلوقين؟

أهل السنة يثبتون ما أثبته الله لنفسه وينفون عنه ما نفاه عن نفسه، بلا تحريف، ولا تعطيل، ولا تكييف، ولا تمثيل. فإذا سلك العبد هذا الطريق في معرفة ربّه، انكسرت في قلبه كل الصور الخاطئة التي صنعها خياله، وأصبحت "قاعدة البيانات" عن الله مبنية على الوحي، لا على ظنون العقل المحدود.

## 3. صفات الجلال وصفات الجمال... تكامل لا تناقض

معرفة الله لا تكتمل إلا بفهم أسمائه وصفاته كما وردت في كتابه وسنة نبيه ﷺ؛ فالله - جل جلاله - له أسماء الجمال وله أسماء الجلال، وصفاته كلها كمال مطلق لا نقص فيه.

**صفات الجمال** هي الصفات التي يظهر فيها فضل الله ورحمته ولطفه وعفوه، مثل:

الرحمن، الرحيم، الحليم، الغفور، الكريم، اللطيف، البر، الودود. هذه الصفات إذا نُزعت عن الله - فرضًا - لكان ذلك نقصًا لا يليق بالإله الحق.

**صفات الجلال** هي الصفات التي يظهر فيها سلطان الله وعظمته وقهره وهيبته، مثل:

العزیز، الجبار، القهار، القوي، شديد العقاب، ذو الجلال والإكرام. ولو نُزعت هذه الصفات - فرضًا - عن الله، لكان هذا أيضًا نقصًا لا يليق بالإله الحق.

الحقيقة العظمى أن الكمال لا يظهر إلا باجتماع الجلال والجمال؛ فصفة "الرحمة" وحدها - بلا حكمة، وبلا عدل، وبلا هيبة - ليست كمالًا، بل قد يُتوهم فيها نقص، وصفة "شدة العقاب" وحدها - بلا رحمة، وبلا عفو، وبلا حلم - ليست كمالًا، بل يُتوهم فيها قسوة لا تليق بالله. الكمال الحقيقي أن تجتمع الصفات كلها في توازن رباني محكم؛

رحمته لا تلغي حكمته،

وعفوه لا يبطل عدله،

وهيبته لا تنفي قربه،

وقهره لا يناقض لطفه،

وجلاله لا يعارض جماله.

قال بعض أهل العلم: "كمال الجلال يظهر مع كمال الجمال، وكمال الجمال يظهر مع كمال الجلال." فالله سبحانه شديد العقاب لمن يستحق، وهو غفور رحيم لمن تاب واستقام، وهذا التوازن الإلهي ليس فيه تناقض، بل هو من أبهى صور الكمال الرباني.

الانحراف يقع عندما يحاول الإنسان أن يفهم صفات الله بالعقل البشري الناقص، فيشبهه صفات الخالق بصفات المخلوقين، فيسقط على الله تصورات البشر عن الرحمة والقوة والعدل؛ فإذا رأى الرحمة ظلّها كرحمة البشر، وإذا رأى القوة ظلّها كقوة البشر، وحينها يتوهم "التناقض" بين الصفات، والسبب ليس الصفات، بل العقل الذي قاس بلا علم. القاعدة الذهبية هنا: كل نقص تتوهمه في صفات الله... فهو من نقص معرفتك أنت بالله.

#### 4. تنزيه الله عن مشابهة خلقه (معنى: سبحان الله)

من أعظم أبواب معرفة الله أن ينزه العبد ربه عن كل ما لا يليق به، وأن يعلم يقينًا أن الله جل جلاله لا يشبه شيئًا من خلقه، ولا يشبهه شيء. قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، وهذه الآية أصل في كل أبواب العقيدة، وهي قاعدة عامة تُبنى عليها جميع الصفات. "سبحان الله" ليست ذكرًا عابرًا، بل هي إعلان من العبد أنه يُنزه الله عن كل نقص، وعن كل صورة يتخيلها عقله، وعن صفات البشر، وعن الحدود والقيود، وعن مشابهة خلقه في أي شيء.

كل ما تتخيله من جمال أو جلال أو كمال... فهو - مهما عظم - دون ما يليق بالله؛ لأن العقل لا يدرك إلا ما له شبيه، والله لا شبيه له ولا نظير. قال السلف: "كل ما خطر ببالك... فالله بخلاف ذلك".

أهمية هذا التنزيه في فهم القدر عظيمة؛ لأن من شبّه الله بالمخلوق - ولو من حيث لا يشعر - سيُسقط على الله أفكارًا بشرية، ثم يسأل:

لماذا قدّر الله عليّ هذا؟ هل كان يمكن أن يغيّره؟ هل ينتظر ليرى ماذا سأفعل؟ هل علم بالأحداث بعد وقوعها؟ هل يقع شيء دون أن يشاء؟ هذه الأسئلة كلها تولد من تشبيه الله بالمخلوق.

أما إذا نزه العبد ربّه، علم أن الله يعلم بلا زمان، ويقدر بلا تعب، ويريد بلا تردد، ويحكم بلا ظلم، ويفعل ما يشاء بحكمة مطلقة. وحين تُنزه الله يطمئن القلب، وتستقيم العقيدة، ويزول إشكال القدر من جذوره.

## 5. الله لا يحده زمان ولا مكان (مفتاح لفهم القدر)

من أعظم أسباب الإشكال في مسألة القضاء والقدر أن الإنسان ينظر إلى الله بعين الزمن، فيتخيّل - من حيث لا يشعر - أن علم الله كعلم البشر:

علم يأتي بعد جهل، أو يزداد مع مرور الوقت، أو ينتظر ليرى ما سنفعل، أو يتفاجأ بأحداث تقع، وهذا كله تشبيه لله بخلقه، وهو أصل الضلال في القدر.

الزمن الذي نعيش فيه - ماضٍ وحاضر ومستقبل - مخلوق من مخلوقات الله، وليس شيئاً خارجاً عنه يدرك به الأحداث؛ فالله جل جلاله خالق الزمان والمكان، فلا يحده زمن، ولا يقيدّه مكان، ولا يجري عليه تغيير ولا انتقال.

نحن -المخلوقين - نعيش اللحظة تلو اللحظة، فننتقل من الأمس إلى اليوم إلى الغد، فنظن أن الله "ينتظر" حتى يرى ما نفعل، لكن عند الله: آدم ليس بعيداً، والقيامة ليست بعيدة، والحاضر ليس أقرب من الماضي، والمستقبل ليس أبعد من الآن؛ كلها أمام الله سبحانه على حدّ سواء، لأن الزمن يُقاس على المخلوق، ولا يُقاس على الخالق.

علم الله واحد شامل غير زمني؛ ليس "علم المستقبل" وحده، ولا "علم الماضي" وحده، بل علم واحد لا قبل فيه ولا بعد. فالله يعلم الأشياء لا لأنها حصلت، بل لأنها لا تخفى عليه؛ يعلم ما لم يكن لو كان كيف يكون، ويعلم ما سيكون قبل أن يكون، ويعلم ما هو كائن الآن بكل دقائقه.

إذا علمت أن الله لا يحده الزمن، زال الإشكال الذي يردده الناس:

متى كتب الله عملي؟ كيف يعلم الله اختياريّ قبل أن أقوم بها؟ هل علم الله متوقف على فعليّ؟ هذه الأسئلة لا تظهر إلا عند من يفهم الله فهماً بشرياً، أما من فهم أن الله خالق الزمان لا يجري عليه، استقر قلبه، واطمأن عقله، وتبى العقيدة على أساس صحيح.

## 6. آية مفاتيح الغيب: (وما تسقط من ورقة إلا يعلمها)

من أعمق ما يعرفك بالله علماً ووجداناً، معرفةٌ تهدم كل شبهة في القدر أن تدبر قوله تعالى:

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾

الأنعام: 59

هذه الآية وحدها - إذا وقف عندها القلب - تكفي لإزالة كل سؤال في باب القدر. الله يخبرنا أنه يعلم سقوط الورقة، ووقت سقوطها، وكيفية حركتها، واتجاه الريح الذي يحركها، ومكان استقرارها، وعدد الأوراق التي تسقط في كل لحظة على وجه الأرض. ورقة واحدة، أمر قد لا يلتفت إليه البشر أصلاً، ومع ذلك فهو داخل علم الله وكتابته ومشيتته.

إذا كان الله يعلم الورقة، فهل يخفى عليه حالك أنت؟

إذا علم الله سقوط الورقة، فدمعتك - حين تنزل - لم تسقط إلا بعلم الله وقدره وحكمته؛ دمعة خوف، دمعة وجع، دمعة انكسار، دمعة دعاء، دمعة توبة، دمعة فرح... كل دمعة كتبها الله، وقدرها، وأحاط بها علماً، ولها عند الله حكمة، ولها عند الله جواب.

هذه الآية لا تتحدث فقط عن علم الله، بل تعرّفك بالرب الذي يعلم كل شيء، ويدبر كل شيء، ويكتب كل شيء، ويقدر كل شيء، ويخلق كل شيء، ويحفظ كل شيء، ويرحم كل شيء. أركان القدر الأربعة تجتمع فيها: العلم في قوله (يعلمها)، والكتابة في (إلا في كتاب مبین)، والمشيتة لأنها لا تسقط إلا بإذنه، والخلق لأنه خلق الشجرة والورقة وسقوطها.

من عرف هذه الحقيقة لم يبق عنده إشكال؛ إذا فهم العبد أن علم الله بهذه الدقة وبهذه الإحاطة وبهذا القرب، فكيف يعترض قلبه على قدر يجري عليه؟ وكيف يظن أن الله قدر عليه شيئاً عبثاً أو ظلماً؟ وكيف يبقى في صدره شك في حكمة الله أو رحمته؟ هذا هو معنى قول ابن القيم: "من عرف الله... لم يبق عنده شبهة في القدر".

#### 4. من عرف الله سهّل عليه فهم القدر

بعد تأمل أسماء الله وصفاته، وتزييه عن مشابهة خلقه، ومعرفة أنه لا يحده زمان ولا مكان، وأنه يعلم أدق التفاصيل حتى سقوط الورقة، نصل إلى حقيقة عظيمة: أن القدر لا يفهم بالعقل قبل أن يُعرّف الله بالقلب.

الإشكال في القدر لا يأتي من القدر نفسه، بل يأتي من صورة ذهنية ناقصة عن الله،

فيتوهم الإنسان أن الله يتردد، أو يتغير علمه، أو ينتظر ليرى، أو يتحرك مع الزمن، أو يفعل شيئاً بلا حكمة، أو يظلم الناس في أقدارهم، أو أن مشيئته تُلغي مسؤولية الإنسان. هذه كلها أوهام بشرية، مصدرها قياس الخالق على المخلوق.

أما إذا صحّت معرفة الله، فإن القلب يدرك مباشرة أن الله لا يظلم مثقال ذرة، وأن ما قدره عليك هو عين الحكمة، وأن الله لا يجري عليه زمان، وأن علم الله لا ينقص ولا يزيد، وأن كل قضاء فيه رحمة وإن خفيت، وأن الخير كل الخير فيما يختاره الله، وأن اختبار الإنسان لا يتم إلا بالابتلاء، وأن أفعال العبد تقع باختياره داخل مشيئة الله.

عندها يزول السؤال: "كيف نحاسب على أفعالٍ قدرها الله؟"

لأن العبد يرى أن الله أعطاه الاختيار والعقل والقدرة، ثم قدر عليه ما اختاره هو لنفسه.

ويزول السؤال الآخر: "لماذا أسعى والرزق مكتوب؟"

لأن العبد يدرك أن السعي نفسه من قدر الله، وأن الله كتب الرزق وكتب السعي، وجعل الأسباب طريقاً للنتائج، بحكمة لا تنفصل عن رحمته.

بهذا المعنى نفهم: إذا اكتملت لك معرفة الله... اكتمل لك فهم القدر.

## المحور الثاني: القضاء والقدر وأركانه الأربعة

القضاء والقدر... علم الله ومشيتته وكتابته وخلقُه

بعد أن تستقر معرفة الله في القلب - علمًا وجلالًا وجمالًا وحكمةً وقدرةً - يصبح القدر مفهومًا واضحًا، لأن القدر ليس حدثًا منفصلاً عن صفات الله، بل هو ثمرة من ثمار ربوبية الله وعلمه وحكمته. القدر هو النظام الإلهي الذي يدير الله به هذا الكون، وهو مبني على أربعة أصول عظيمة لا يكتمل الإيمان بالقدر إلا بها: العلم، والكتابة، والمشيتة، والخلق.

### 1. الركن الأول: العلم

الإيمان بأن الله قد علم كل شيء قبل أن يكون؛ علم ذوات العباد، وأعمالهم، واختياراتهم، وخواطر نفوسهم، وعلم مقاديرهم وأجالهم، وما يصلحهم وما يفسدهم، وعلم ما كان وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون. علم الله ليس علمًا يتجدد ولا يزداد مع الزمن، ولا ينتظر ليرى ماذا سنفعل، لأن الله — جل جلاله — خالق الزمان، والزمن لا يقيس علمه ولا يحده.

علم الله قديم أزلي كامل محيط، لا يطرأ عليه نقص، ولا يتغير بتغير الأحداث، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء. قال تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. فعلم الله أساس القدر، والإيمان بالقدر يبدأ من هنا: أن ما يجري في الكون كله معلوم لله قبل وقوعه، مكتوب في كتابه، واقع بمشيتته، مخلوق بفعله.

### 2. الركن الثاني: الكتابة

الإيمان بأن الله كتب مقادير كل شيء في اللوح المحفوظ قبل خلق السماوات والأرض. هذه الكتابة ليست تسجيلًا لاحقًا، ولا وصفًا لأحداث تجري ثم تُكتب، بل هي كتابة أزلية نابعة من علم الله الكامل بكل ما هو كائن. قال رسول الله ﷺ: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة» (رواه مسلم).

الذي جرى، والذي يجري الآن، والذي سيجري... كله مكتوب في أم الكتاب قبل وقوعه. وتشمل هذه الكتابة كل شيء بلا استثناء: الأرزاق، والأجال، والمصائب، والنعم، والطاعات، والمعاصي، وحركة الإنسان وسكونه، وحركة المخلوقات كلها.

الكتابة ليست مجرد توثيق، بل هي من كمال ربوبية الله، ودليل على إحاطة علمه، ونفاد حكمته، وشمول تديره، وانتفاء العبث والصدفة؛ فلا يقع شيء عشوائي، ولا حركة بلا تقدير، ولا حادثة بلا علم سابق وكتابة محكمة.

### 3. الركن الثالث: المشيئة

الإيمان بأن كل ما يجري في هذا الكون لا يقع إلا بمشيئة الله؛ فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن. قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾، وقال: ﴿وَاللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾، وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾.

مشيئة الله تشمل جميع أحداث الكون: إيمان المؤمن، وكفر الكافر، وطاعة الطائع، ومعصية العاصي، وصحة المريض، ومرض الصحيح، والغنى، والفقر، والنصر، والهزيمة؛ كلها لا تقع إلا بإذن الله الكوني. لكن لا بد من فهم نقطة فاصلة: قد يقع الشيء بمشيئة الله، لكنه ليس محبوبًا له؛ لأن هناك إرادتين: إرادة شرعية هي ما يحبه الله ويرضاه، وإرادة كونية هي ما يأذن الله بوقوعه في الكون لحكمة الامتحان والابتلاء.

المعاصي مثلًا تقع بمشيئة الله الكونية، لكن الله لا يحبها شرعًا، وإنما أذن بوقوعها لحكمة الامتحان، وإقامة العدل، ولتمييز الطائع من العاصي. مشيئة الله الشاملة لا تعني إلغاء إرادة العبد؛ بل داخل هذه المشيئة جعل الله للإنسان إرادة وقدرة واختيارًا، يختار الطاعة أو المعصية، والخير أو الشر، ويحاسبه الله على اختياره هو. فالاختيار واقع باختيار العبد، ووقوع الفعل في الكون بإذن الله ومشيتته.

مشيئة الله لا تُلغى مسؤولية العبد، بل تثبت أن الله رب العالمين، وأن الإنسان عبدٌ مكلفٌ؛ فلا جبر ولا استقلال، بل اختيار داخل مشيئة.

#### 4. الركن الرابع: الخلق

الإيمان بأن الله خالق كل شيء، وأنه سبحانه خلق ذوات العباد، وصفاتهم، وقدراتهم، وإراداتهم، وأفعالهم، وآثار أفعالهم، والأسباب والنتائج، والمسببات ومساراتها. قال تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾، وقال: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾، وقال: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾.

خلق الله للعبد يشمل ذاته وقدرته وقوته وأعضائه ووسائل عمله، ويشمل أيضًا الظروف التي يعمل فيها والنتائج التي تترتب على عمله؛ لكن اختيار الفعل نفسه يقوم به العبد بإرادته التي خلقها الله فيه. فالعقل، والقدرة، والإرادة، والظروف، والزمان، والمكان... كلها مخلوقة لله، أما توجيه هذه القدرة والإرادة نحو الطاعة أو المعصية فهو اختيار العبد، ولهذا يُحاسب.

منهج أهل السنة في الجمع بين "خلق الله" و"اختيار العبد" هو: الله خالق الفعل... والعبد فاعله حقيقةً. الله خلق القدرة، والعبد هو الذي استخدمها، وخلق الطاقة، والعبد هو الذي وجهها، وخلق الإرادة، والعبد هو الذي اختار بها، وخلق الأسباب، والعبد سلكها أو تركها، وخلق النتائج. فيكون العبد مسؤولاً عن فعله، والله خالق هذا الفعل من جهة خلق القدرة والظروف. العبد مرید ذو إرادة، لكن إرادته مخلوقة، وقدرتها مقدرة، ومجال عملها ضمن حدود قدر الله وحكمته.

هذا الركن يثبت أمرين في آن واحد: كمال ربوبية الله فلا شيء يقع خارج خلقه، وكمال مسؤولية العبد لأن فعله هو اختياره وليس جبراً عليه. وبذلك يلتئم الفهم الصحيح للقدر: لا جبر، ولا استقلال، بل خلقٌ من الله... واختيارٌ من العبد... وحكمة تجمع بينهما.

#### لماذا يزول إشكال القدر بعد معرفة الله؟

بعد أن يفقه العبد أسماء الله وصفاته، ويفهم كمال علمه وحكمته وعدله ورحمته، ويُميّز بين الجلال والجمال، ويعلم أن الله لا يحده زمان ولا مكان، ثم يعرف أركان القدر الأربعة - العلم والكتابة والمشية والخلق - ينكشف له سرٌّ عظيم: أن القدر ليس لغزاً يحتاج إلى حلّ، بل هو مظهر من مظاهر كمال الله.

الإشكال الذي يقع في صدور الناس لا يأتي من القدر نفسه، بل يأتي من تصوّر ناقص عن الله؛ من ظنّ أن الله "ينتظر" ليرى ما يفعل العبد، أو أن علمه يتغير، أو أن أفعاله قد تخلو من الحكمة، أو أن مشيئة الله تنافي مسؤولية الإنسان، أو أن الله قد يأمر بما لا يريد، أو يريد بما لا يحب. كل هذه الظنون تنشأ من تشبيه الله بخلقه، ومن عدم فهم حقيقة صفاته وكماله.

أما إذا عرف العبد ربّه معرفة صحيحة، فلا يبقى عنده تعارض؛ فالله يعلم ولا يجبر، ويكتب ولا يظلم، ويشاء ولا يُكره، ويخلق ولا يُحاسب إلا على اختيار العبد، ويقدر ولا يفعل شيئاً عبثاً، ويبتلي ولا يبتلي إلا لحكمة ورحمة. العبد يرى أن كل ما يجري في الكون، وما يجري في حياته، داخل إطار: علم الله، وعدله، وحكمته، ورحمته.

وإذا وصل القلب إلى هذه النقطة، فإن أسئلة القدر كلها تهدأ وتخبو، وتتحوّل من إشكال إلى طمأنينة، ولهذا قال أهل العلم: "إذا تمّت معرفة الله... تمّ فهم القدر".

### المحور الثالث: الإرادة الشرعية والإرادة الكونية

الفرق بين ما يحبه الله شرعًا وما يأذن به كونًا

من أدق ما يجب على العبد معرفته في باب القدر أن الله - جل جلاله - إرادتين: إرادة يحبها ويرضاها (شرعية)، وإرادة يأذن بوقوعها لحكمة الامتحان (كونية). الخلط بين هاتين الإرادتين هو أصل كثير من الاعتراضات التي يقولها الناس: إذا كان الله لا يحب الظلم فلماذا يقع؟ وإذا كان الله يحب الطاعة فلماذا لا يتوب كل الناس؟ ولماذا تحدث المعاصي إذا كان الله قادرًا على منعها؟

الجواب: أن ما يحبه الله غير ما يشاء وقوعه في الكون لحكمة الامتحان والابتلاء.

#### 1. الإرادة الشرعية (ما يحبه الله ويرضاه)

الإرادة الشرعية هي كل ما أمر الله به في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ: الإيمان، والصلاة، والصدق، والعدل، وبرّ الوالدين، والرحمة، والإحسان، وترك المعاصي، وطهارة القلب، والأخلاق، والتقوى. هذه الأمور يريد الله منا، ويحبها، ويرضاها، وقد يأمر بها العبد... وهو لا يفعلها لأنه مختار.

إذن: الإرادة الشرعية = ما يحب الله أن تفعله. وهذه الإرادة لا تقع دائمًا؛ لأن الناس قد يعصون أو ينسون أو يتجاوزون، ولأن الدنيا دار اختبار لا دار جزاء.

#### 2. الإرادة الكونية (ما يأذن الله بوقوعه في هذا الكون)

الإرادة الكونية هي كل ما يقع في الوجود: الطاعات والمعاصي، الإيمان والكفر، الخير والشر، الصحة والمرض، الغنى والفقر، الموت والحياة، النصر والهزيمة، البلاء والعطاء والمنع... كل ما يقع — بلا استثناء — هو بإذن الله الكوني.

لكن ليس كل ما يقع يحبه الله؛ فالله سبحانه لا يحب الكفر ولا الفجور ولا الظلم ولا المعصية، لكن يقع ذلك بإذنه لحكمة عظيمة: ليُعرف الصادق من الكاذب، والطائع من العاصي، والشكور من الكفور، والمؤمن من المنافق، ولإقامة الحجة، ولتحقيق الابتلاء، ولظهور آثار الأسماء والصفات، ولجريان سنن الله في الخلق.

إذن: الإرادة الكونية = كل ما يقع في الكون بإذن الله، سواء أحبّه أو لم يحبه.

الإرادة الشرعية هي ما يحبه الله، والإرادة الكونية هي ما يقع بحكمة الله. الناس يخلطون بينهما فيظنون: "إذا وقع شيء، إذن الله يحبه!"، وهذا خطأ. قد يقع الشيء بمشيئة الله الكونية، لكن الله لا يحبه شرعًا؛ فالمعاصي تقع بإذنه، لكنها ليست مرادة محبوبة له، ولا يرضاها، وإنما يجريها بحكمة الامتحان والابتلاء.

### المحور الرابع: هل الإنسان مسير أم مخير؟

بين التسيير في مجالات... والاختيار في مجالات أخرى

السؤال: "هل الإنسان مسير أم مخير؟" غالبًا ما يأتي من تصوّر خاطئ يحصر الأمر في "نعم أو لا"، بينما الحقيقة — بنصوص الشرع والعقل السليم — ليست هكذا. الإجابة الصحيحة: الإنسان في أمورٍ مسير، وفي أمورٍ مخير. وكلٌّ من التسيير والتخير له دائرته التي حددها الله لحكمةٍ بالغة.

### 1. الإنسان مخير في دائرة التكليف

كل ما أمر الله به العبد أو نهاه عنه، جعله له فيه إرادة واختيارًا؛ فأنت تختار أن تصلي أو لا تصلي، وتختار أن تكذب أو أن تصدق، وتختار أن تبرّ أمك أو تعقها، وتختار أن تنفق أو تبخل، وتختار أن تتقي الله أو تتبع الهوى. ولهذا جاء الأمر والنهي، ووضعت الثواب والعقاب، وأقيم الحساب والجزاء، وأنزلت الرسل والكتب، ووحدت الجنة والنار؛ لأن الإنسان في هذه الدائرة مختار محاسب. قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾، وقال: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾. هذه الآيات تثبت إرادة العبد وقدرته ومسؤوليته.

### 2. الإنسان مُسير في دائرة القدر

هناك أمور لا إرادة ولا اختيار للإنسان فيها، وهي داخلية في إطار الابتلاء العام: مكان ولادتك، وزمن ميلادك، وأهلك، ولونك، وقومك، ورزقك الأول، وصحتك الأولى، وقدر الله لك من المصائب والابتلاءات، وطولك وقوتك وضعفك، ونوع ابتلاءاتك، وموتك وأجلك... كل هذه الأشياء لا اختيار لك فيها؛ لذلك لا تُحاسب عليها، ولا يُثاب العبد أو يُعاقب بسببها، لأنها ليست محل التكليف، بل هي جزء من قدر الله فيك، وليست من فعلك أنت.

### 3. كيف يجتمع التسيير والتخير في حياة الإنسان؟

الله — عز وجل — جعل الإنسان مسيرًا فيما لا قدرة له عليه، ومخيرًا فيما كُلف به وأمر ونُهي. يزول التعجب إذا فهم العبد القاعدة التالية: "الله قدّر عليك الظروف... وأعطاك أنت الاختيار داخل هذه الظروف". فقد يولد شخص في بيئة صعبة، وشخص في بيئة مساعدة، لكن كلاهما يملك العقل والإرادة والقدرة والفعل والاختيار. لا أحد يُجبرك على الكذب أو الظلم، ولا أحد يمنعك من الصلاة أو التوبة أو الإحسان.

### 4. مثال دقيق: الصدقة والفقير

هذا المثال يوضح المسألة بجلاء:

أنت حين تتصدق، فأنت مخير؛ تستطيع أن تتصدق أو تمسك، والله يهديك ويعينك، لكن القرار قرارك، ولذلك تُحاسب على الصدقة أو على البخل. أما الفقير حين يصله المال فهو مُسير في أن هذا المال سيصل إليه، فهذا رزقه الذي كتبه الله له، ولم يختار هو الشخص الذي سيتصدق عليه.

كيف اجتمع التسيير والتخير؟ فعل الصدقة من اختيارك أنت، ووصول الرزق إلى الفقير مقدر مسير له. فالله قدّر رزق الفقير، وقدّر أنه سيكون على يديك إن اخترت الخير، ولو اخترت البخل لقدّر الله أن يصل رزق الفقير من يد غيرك.

خلاصة المحور: الإنسان مخير فيما يُحاسب عليه، ومسير فيما لا اختيار له فيه. وهذا هو منهج أهل السنة والجماعة.

## المحور الخامس: لماذا نسعى والرزق مكتوب؟

السعي من عملك... والرزق من عند الله

السؤال: "إذا كان رزقي مكتوبًا... فلماذا أسعى؟ وما فائدة العمل إذا كان كل شيء مقدّرًا؟" هذا السؤال يزول تمامًا عندما نفهم حقيقتين عظيمتين.

### 1. الرزق مكتوب لك لأنك مُسَيَّر فيه

الرزق — في أصله — مقدر ومسجل ومقسوم، كما قال النبي ﷺ: «إِنَّ رُوحَ الْقُدْسِ نَفَثَ فِي رُوعِي أَنَّهُ لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَكْمَلَ رِزْقَهَا». يشمل ذلك ما يأتيك من مال، وما يصلك من فرص، وما يُفتح لك من أبواب، وما تُدفع عنك من مصائب، وما يكتبه الله لك من نعمة أو ضيق. العبد لا يخطئه رزقه، ولا يمكن أن يأخذ أحد رزق غيره، كما لا يمكن أن يهرب العبد من قدر الله.

### 2. السعي نفسه جزء من القدر

السعي من فعلك أنت، لكن فعلك — اختيارك وإرادتك — مخلوق لله، ومكتوب في اللوح المحفوظ، ومقدر بالعلم والمشية. السؤال: متى كتب الله لك رزقك؟ قبل سعيينا أم بعده؟ الجواب: ليس قبل سعيينا وحده ولا بعد سعيينا وحده، بل كتب الله سعيينا ورزقنا معًا بلا ترتيب زمني؛ لأن الله لا يجري عليه الزمان.

علم الله — سبحانه — ليس فيه "قبل" و"بعد"، ولا "سابق" و"لاحق"، فالزمن عند الله مخلوق، وليس قيدًا على علمه. فإذا فهم العبد هذا، زال الإشكال تمامًا؛ السعي من قدر الله، والرزق من قدر الله، وكلاهما مكتوب، لكن السعي اختيار منك، والرزق فضل من الله.

### 3. السعي شرط لظهور الرزق في حياتك

الله قدر الرزق، وقدر الطريق الذي يصل به إليك، والطريق هو: السعي. ولهذا شبه النبي ﷺ الأمر بالطير: «لَوْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو خِمَاصًا، وَتَرُوحُ بِطَانًا.»

الطير تخرج جائعة صباحًا وتعود شبعانة مساءً؛ كتب الله للطير رزقها، وكتب معها أن تسعى إليه. فالذي لا يسعى كطير يبقى في عشه ويقول: "رزقي مكتوب"... سيموت جوعًا.

### 4. السعي عبادة، والرزق نعمة

السعي عبادة، والرزق نعمة؛ السعي من عملك، والرزق من فضل الله. الله — عز وجل — يريد أن يُظهر كرمه في رزقك، وحكمته في اختيار نوع رزقك، وعدله في رزق غيرك، وابتلاءه في توزيع الأرزاق. وبيبتليك: هل تسعى بالحلال؟ هل تشكر حين تُرزق؟ هل ترضى حين تُمنع؟

### 5. السعي لا ينافي التوكل... بل هو شرطه

التوكل ليس ترك الأسباب، بل كما قال السلف: "التوكل عمل القلب، والسعي عمل الجوارح." من ترك السعي بحجة "الرزق مكتوب" فقد جمع بين سوء الفهم، وسوء الظن بالله، ومخالفة سننه، وتعطيل الحكمة الإلهية، والكسل الذي لا يحبه الله.

### 6. فرق بين الرزق الذي تطلبه... والرزق الذي يطاردك

بعض الأرزاق تأتيك بالسعي، وبعضها يأتيك بلا سعي: رزق الصحة، والعمر، والأولاد، والنجاة من مصيبة، والتوفيق والهداية، ومحبة الناس، وسعة الصدر، ودفع البلاء... هذه الأرزاق مئة محضة لا يد لك فيها. أما أرزاق المال والعمل والكسب، فهي مرتبطة بالسعي، لكن السعي نفسه جزء من قدر الله المكتوب.

7. **الخلاصة:** السعي اختيارك... والرزق اختيار الله. وقدّر الله الرزق، وقدّر السعي، وجعلك تُحاسب على السعي لا على مقدار الرزق. فليس زيادة الرزق دليل حبّ مطلق، ولا نقصه دليل بغض، وإنما المعيار هو عمل القلب وسعي الجوارح.

## المحور السادس: كيف يحاسب الله الناس وبيئاتهم مختلفة؟

هذا السؤال ينبثق من الجذر نفسه الذي تولدت منه كل إشكالات القدر: نقص المعرفة بالله عز وجل. فالعبد يرى اختلاف البيئات والفرص والقدرات، فيسأل: أين العدل؟ وكيف يُحاسب من وُلد في الجهل مثل من وُلد في العلم؟ وكيف يُمتحن من عاش في بيت سيئ مثل من عاش في بيت صالح؟ وهل تتساوى إرادة قوتية وضعف شديد؟

لكن القرآن يضع ميزانًا واحدًا يهدم كل هذا الإشكال:

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ الأنبياء: 47

هذه الآية هي قاعدة الحساب الكبرى، وتُجيب عن السؤال بأربع حقائق:

### 1. لكل إنسان ميزانه الخاص — "الموازين القسط"

الله لا يحاسب بميزان واحد للناس جميعًا، بل ميزان لكل عبد. يُراعى فيه: علمه، جهله، قدرته، ضعفه، بيئته، فتنته، ما بلغه من الحق، وما لم يبلغه، وما كان داخل وسعه وما خرج عنه. ولهذا قال سبحانه:

﴿لَا يَكْفُرُ اللَّهُ تَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾. فالوسع مختلف... إذن الميزان مختلف... والحساب مختلف.

### 2. أدق عدل يمكن تخبّله — "وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها"

الله لا يحاسب على النتائج، بل على السعي والنية والقصد. فالإنسان ليس له إلا ما سعى، وأصغر خاطر أو نية أو مجاهدة لا تضيع. وقد يكون عمل صغير في بيئة مظلمة أعظم عند الله من جبال أعمال في بيئة سهلة. العدل الإلهي لا يُفاضل بين الظروف، بل بين اختيار العبد داخل ظروفه.

### 3. كلمة تهزّ القلب — "وكفى بنا حاسبين"

خاتمة الآية تقطع باب التساؤل. وكأن الله يقول لعبده: أفيكفك أنني أنا الذي سأحاسبك؟ أتشك في عدلي؟ أتظن أنني أجهل ظروفك أو ضعفك وقد خلقتك وأعلم شرك ونجواك؟ هنا يخجل المؤمن من السؤال نفسه؛ فالحساب بيد العدل المطلق، العلم المطلق، الرحمة المطلقة.

### 4. الحجة لا تقوم إلا على من بلغته — "بلى قد جاءتنا رسلنا"

لا يدخل النار أحد إلا بعد أن يعترف بأنه بلغته الحجة كاملة. قال تعالى على السنة أهل النار: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَ تَنَائِبًا رَسُولَنَا﴾. فالخوف ليس من نقص العدل، بل من تمام العدل... لأن من نوقش الحساب عُدّب. أما الظلم فمحال على الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾.

الخلاصة المحكمة في هذا الباب: لكل عبد ميزان خاص، يوزن به وسعه وسعيه لا نتائجه. لا يتساوى من علم بمن جهل، ولا من قدر بمن عجز، ولا من بُني بيته على التقوى بمن فتح عينه على الفساد.

الحساب ليس آليًا ولا عامًا، بل دقيق... فردي... محكم.

• والفیصل النهائي كلمة واحدة: ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾.

## خاتمة منهجية في باب الغيب والقدر

يبقى أصلٌ عظيم لا بد أن يُختم به هذا الباب: أن الخلل في فهم الآخرة، وعدل الله، والقدر، والغيب عمومًا، لا ينشأ من نقص الجواب بقدر ما ينشأ من نقص المعرفة بالله. فكثير من أسئلة "كيف؟ ولماذا؟" لا تبدأ من موضعها الصحيح؛ إذ قبل أن نسأل: كيف يحاسب الله؟ ولماذا قدر؟ وكيف يجري الغيب؟ ينبغي أن نسأل السؤال الأسبق والأعمق: من هو الله؟

فإذا سأل العبد هذا السؤال بصدق، أجابه الله عن نفسه في كتابه، وعرفه بصفاته وأسمائه: هو العليم الذي أحاط بكل شيء علمًا، الحكيم الذي لا يضع شيئًا إلا في موضعه، العدل الذي لا يظلم مثقال ذرة، الرحمن الرحيم، الخبير البصير، القريب الذي يعلم السر وأخفى، الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء. فإذا استقر هذا التعريف في القلب كما وصف الله نفسه، لا كما يتخيله العقل، زالت من أصلها كثير من أسئلة "كيف ولماذا"، لأن الفعل لم يعد يُنظر إليه منعزلًا، بل يُنظر إليه صادرًا عن علمٍ مطلق، وحكمةٍ مطلقة، وعدلٍ مطلق، ورحمةٍ مطلقة.

إن العقل — على جلال قدره — مخلوق محدود، يدرك في إطار الزمان والمكان، ويتصور في حدود ما أعطي من وسع، ولا يستطيع أن يتجاوز شروط تكوينه. أما الله سبحانه فليس كمثله شيء، وعلمه لا يُحد، وحكمته لا تُدرَك على وجه الإحاطة، ولا تُقاس بمقاييس البشر. ومن تمام الفهم أن يعرف الإنسان حدّه؛ فليس كمال العقل أن يُحيط بكل شيء، بل كماله أن يعرف أنه لا يُحيط، وأن إدراكه للحد هو عين رشده. فإذا وقف العبد عند سؤال: كيف؟ في مسائل القدر والغيب، فليعلم أن "الكيف" مما استأثر الله بعلمه، وأن خفاء الحكمة لا يدل على غيابها، بل يدل على قصور الإدراك عن الإحاطة.

وأعلم أن هذه الأسئلة — إن كانت منطلقة من طلب الحق، ومبنية على إدراك الإنسان لحدود عقله — فهي أسئلة محمودة، تزيد الفهم وتعمق اليقين، وتفتح أبواب التفكير في أسماء الله وصفاته. لكن الخطر يبدأ حين تتحول من سؤالٍ متعلمٍ إلى محاكمةٍ للغيب، أو من بحثٍ عن الهداية إلى قياسٍ لعلم الله بعقل الإنسان، أو إلى محاولة لإدراك علم الغيب، أو إلى تصور أن عدل الله يُفهم كما تُفهم عدالة البشر. هنا ينقلب السؤال من باب نورٍ إلى باب اضطراب.

ولذلك قال السلف: "كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك." فكل صورة ذهنية يرسمها العقل عن كيفية القضاء، أو عن تفصيل العدل في الآخرة، أو عن ترتيب الغيب، تبقى صورة محدودة بقيود البشر. أما الله سبحانه فأفعاله قائمة على علمٍ لا يحده زمان، وحكمةٍ لا يحيط بها عقل، وعدلٍ لا يُتصور فيه نقص، ورحمةٍ سبقت غضبه. فإذا آمن العبد أن الله أعلم منه، وأحكم منه، وأرحم به من نفسه، سلّم فيما لم يُدرِكه، واطمأن فيما لم يُحِط به، وعلم أن الغيب باب تعبدٍ وتسليم، لا باب تشبيهٍ وتمثيل، وأن القدر ليس مجالًا لتخيّل الكيفيات، بل ميدانًا لتعظيم الرب والثقة بحكمته.

وهنا تهدأ النفس، وتسكن الأسئلة القلقة، ويثبت الإيمان؛ فيدرك العبد أن تمام إدراكه هو اعترافه بأنه لا يُدرِك الكيف، وأن تمام حكمته هو وقوفه عند حدود ما أذن له فيه، وأن الله إذا ابتلاه فقد ابتلاه بعلم، وإذا قدر عليه فقد قدر بعُدل، وإذا أعطاه فقد أعطاه

بفضل، وإذا منعه فبحكمة. وعند هذه النقطة لا تختفي الأسئلة لأن العقل أسكت، بل لأنها عادت إلى موضعها الصحيح: معرفة الله أولاً، ثم فهم أفعاله على ضوء ما عرّف به نفسه. ومن عرف الله حق المعرفة، سكنت عنده "كيف"، وهدأت عنده "لماذا"، وبقي اليقين.

DRAF